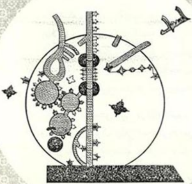

الجغرافيا البشرية فى العالم الإسلامى

حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى

تاليف : أندريه ميكيل

ANDRE MIQUEL

عرض : محمد خضر محمد خضر

مؤلف هذا الكتاب هو المستشرق الفرنسي « أندريه ميكيل » الذي كان أستاذا بمدرسة الدراسات العليا بجامعة السوربون Ecole pratique des hautes Etudes ثم انتقل إلى التدريس بمعهد الدراسات الإسلامية بجامعة السوربون ويعمل حالياً أستاذاً بالكوليج دى فرانس Colleqe de France

وقد تخصص في دراسة العلوم الجغرافية عند العرب والمسلمين ولايزال يلقي محاضراته حول هذا الموضوع وما يتصل به من موضوعات الحضارة الإسلامية

وقد نشر الكتاب لدى الناشر موتون Mouton في عام ١٩٧٥م في جزأين :

١ – الجزء الأول ويقع في ٤٢٦ ص من القطع الكبير .
٢ – الجزء الثاني ويقع في ٧٠٥ ص من القطع الكبير .

ويتبين لنا للوهلة الأولى وبالنظر إلى ضخامة هذا الكتاب مدى الجهد الذي أنفقه المؤلف في تأليفه ولسنا ندعي أننا سنستطيع تلخيصه أو حتّى الإشارة بصورة مفصلة إلى الموضوعات التي يضمها في هذه العجالة التي يضيق مجالها عن هذا الأمر وإنما هي محاولة لجذب انتباه المتخصصين في علم الجغرافيا إلى أهمية هذا الكتاب وعلى الأخص الذين يعنون بدراسة فروع الحضارة الإسلامية .

والسبب الذي دعا مؤلفه إلى تقسيم كتابه إلى جزأين هو أنه حاول في كل جزء أن يعالج موضوعا قائماً بذاته ففي الجزء الأول ركز اهتمامه

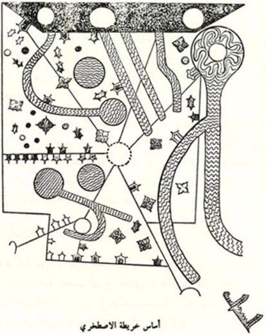

أساس خريطة الاصطخري

على الجغرافيين العرب أنفسهم وعلى مؤلفاتهم ومصادرها وكان العنوان الفرعي لهذا الجزء هو

الجغرافيا والجغرافيا البشرية في الأدب العربي حتى سنة ١٠٥٠م .

أما في الجزء الثاني فقد حاول أن يجمع موضوعات شاملة في الجغرافيا ويبين وجهة نظر الجغرافيين العرب تجاه هذه الموضوعات مثل نظرتهم إلى الشرق الأقصى وأفريقيا السوداء وأوربا الشرقية إلى غير ذلك .

وقد بين المؤلف في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه إلى اختيار اسم الجغرافية البشرية كعنوان له . ذلك أن الجغرافيه البشرية في كتابه تعني أنه سوف يدرس نصوصاً ذات طابع جغرافي ولكن الإنسان يحتل فيها مكان الصدارة .

أما السبب الذي دعاه إلى اختيار عام ١٠٥٠م كموعد للوقوف بدراسته عند هذا التاريخ فيرجع حسب قوله إلى أن هذا العام يمثل نقطة تحول حاسمة في تاريخ الإسلام حيث تغلب العنصر التركي أو الطوراني على مقدرات الأمة الإسلامية من الناحية السياسية كما بدأت تظهر فيه عودة الغرب إلى البعث إلى جانب عوامل ثقافية واقتصادية أخرى .

ورأى علم الجغرافيا قد تأثر بهذا التحول .

وقد بدأ المؤلف كتابه بإثبات أسماء الجغرافيين الذين درس كتبهم ورتبهم ترتيباً زمنياً حسب تاريخ وفاتهم وعدّد في هذا المجال اثنين وتسعين مؤلفا وكتابا أورد عن كل مؤلف منهم نبذة قصيرة كما أورد تعريفا بكل كتاب من الكتب المجهولة المؤلف التي رجع إليها .

ويعتبر هذا الثبت البيليوجرافي من أوفى ما كتب في علم الجغرافيا عند المسلمين ولا غنى لأي باحث في ذلك العلم من الرجوع إليه خصوصاً وأنه إلى جانب من ذكرهم من المؤلفين والجغرافيين المعروفين فقد ذكر عدداً من الجغرافيين الذين ضاعت كتبهم ولم تعرف إلا عن طريق النقل بواسطة المتأخرين .

كما أورد أمام كل مؤلف المراجع التي يمكن الرجوع إليها للحصول على مزيد من المعرفة عنه .

وقد عقد المؤلف في أول كتابه فصلا عن مصادر علم الجغرافيا عند العرب عدد فيه الفروع العلمية التي استقى منها الجغرافيون العرب معرفتهم .

منها علم التضاريس الأرضية وعلم الكائنات الحية والعلوم الإغريقية والعلوم الأخلاقية والعلوم السياسية والعلوم التقليدية كعلم اللغة والعلوم الدينية والتاريخ .

وفي الفصل الثاني من الكتاب تعرض المؤلف للاتجاهات الحاسمة التي شكلت علم الجغرافيا في القرنيين الثالث والرابع الهجري وصلة الجغرافيا بالأدب . وتعرض على الأخص للدور الذي لعبه كل من الجاحظ وابن قتيبه في تشكيل علم الجغرافيا .

فالنسبة للجاحظ بين أهمية مؤلفاته الثلاثة وهي :

(أ) كتاب التربيع والتدوير .

(ب) كتاب الحيوان .

(ح) كتاب الأمصار وعجائب البلدان .

في تشكيل الخطوط الرئيسية لعلم الجغرافيا أما بالنسبة لابن قتيبه فقد تعرض لدراسة كتابه أدب الكاتب وأوجد الصلة بين هذا الكتاب وبين علم الجغرافيا .

أما في الفصل الثالث فقد تعرض المؤلف للاهتمامات الفنية لدى الجغرافيين العرب مثل رسم صورة الأرض ووضع خريطة لها كما تعرض

للأدب الإداري – أي المتعلق بشئون إدارة الدولة . وتطور هذا الأدب والصلة بينه وبين علم الجغرافيا .

كما تعرض في هذا الفصل للبحوث التجارية .

وبدأ بتعريف صورة الأرض وماهيتها لدى الجغرافيين ثم ثنى بدراسة مدرسة الكندي وتطور صورة الأرض لديه ومن بعده لدى السرخسي وابن سيرابيون والبلخي وذكر بداية الجغرافيا الإدارية وأول من ألف فيها وهو ابن خرداذبه والجيحاني الذي تلاه ثم انتقل إلى دراسة قدامة بين جعفر واليعقوبي وقد تعرض خلال دراسته هذه إلى الجغرافيا الإدارية التي تخدم أغراض الحاكم خصوصاً ما يتعلق منها بجمع الخراج ودراسة وضع الثغور .

كما أعطى في هذا الفصل فكرة عن الكتب التي ألفت عن الأسعار مثل الكتاب الذي ألفه ماشاء الله اليهودي (٧٧٠ – ٨٢٠م) في زمن المأمون وسماه كتاب الأسعار .

وأشار بعد ذلك إلى كتاب التبصر بالتجارة الذي ألفه الجاحظ .

أما الفصل الرابع من الجزء الأول فقد خصصه المؤلف لدراسة الأشخاص الذي قاموا بالرحلات وتعرض خلال ذلك للطرق التجارية في المحيط الهندي وأشار إلى كتاب مجهول المؤلف بعنوان أخبار الصين والهند وقد ألف هذا الكتاب في سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م .

وذكر بعد ذلك الطريق المؤدية إلى الشمال والتي قام ابن فضلان

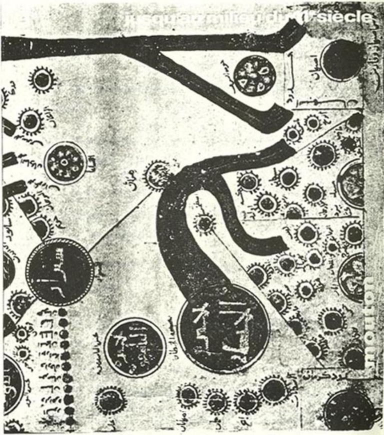
jusqu'au milieu du 11e siècle
mouton

La Geographie Humaina du Monde
Musulman Jnsqu'au milieu du 11e Siecle
Des Oorigines à 1050.

بالرحلة فيها ثم انتقل إلى ذكر الرحلتين اللتين قام بهما أبو دلف مسعر على نفس الطريق .

وانتقل بعدها إلى وصف الطريق إلى الشمال الغربي المؤدية إلى أوروبا وأفريقية .

أما الفصل الخامس من الجزء الأول فقد خصصه المؤلف لدراسة ابن الفقيه صاحب كتاب البلدان .

ووصف السمات العامة لهذا الكتاب ثم استقصى المصادر التي اخذ عنها والموضوعات التي تناولها وخلص إلى أن دراسة علم البلدان هي دراسة قائمة بذاتها لها خصائصها المميزة .

واعتبر أن دراسة كتاب ابن الفقيه هي دراسة لوجهة نظر الأدب تجاه علم الجغرافيا .

أما الفصل السادس فقد خصصه للجغرافيين من مؤلفي الموسوعات والمؤرخين وغيرهم .

وأول من قام بدراسة في هذا الفصل هو ابن رسته صاحب الأعلاق النفسية ثم انتقل بعده إلى المسعودي الذي اعتبره « إمام » الموسوعات الجغرافيه في كتابه مروج الذهب والتنبيه والأشراف وانتقل بعد ذلك إلى دراسة المقدسي وكتابه « البدء والتاريخ » .

ثم انتقل إلى دراسة مؤلفات إخوان الصفا الجغرافية وبعدها تعرض للخوارزمي والبيروني وما اسهما به في علم الجغرافيا .

وخصص المؤلف الفصل السابع للقواميس الجغرافية وأول ما بدأ به كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني . ثم تعرض لمن كتبوا عن أفريقية والأندلس وذكر الرازي صاحب كتاب صفة قرطبة وأبا عبيد البكري صاحب كتاب معجم ما استعجم .

أما في الفصل الثامن فقد تعرض لدراسة أدب المسالك والممالك بصفة مفصلة باعتبار أن هذا الأدب هو جوهر دراسة الجغرافيا البشرية أي دراسة الأرض والإنسان . فقد بدأ بتحديد معنى دراسة المسالك والممالك وأنها وإن كانت دراسة تقليدية إلا أنها اكتسبت صورة جديدة وأنها في الحقيقة دراسة للجغرافيا البشرية . ودراسة للجغرافيا كما يراها شاهد العيان .

وبدأ يعدد مؤلفي المسالك والممالك وأولهم اليعقوبي وانتقل بعدها إلى الاصطخري ثم إلى ابن حوقل وذكر واحداً من الجغرافيين أهمل ذكره ولم يعرف كثيراً وهو المهلبي الذي ألف كتابا اسمه المسالك والممالك باسم الخليفة العزيز بالله الفاطمي وقد عرف هذا الكتاب باسم كتاب العزيز .

وتعرض بعد ذلك للمقدّسي والزمن الذي عاش فيه واعتبر أن كتاب أحسن التقاسيم هو ذروة ما ألف في أدب المسالك والممالك .

أما الفصل التاسع وهو الفصل الأخير في الجزء الأول فقد وضع له عنوانا هو « الجغرافيا في محيطها » درس فيه الصلة بين الجغرافيا والتجارة أي الجغرافيا في معناها الاقتصادي ثم الصلة بينهما وبين السياسة أي الجغرافيا السياسية وكذلك الصلة بينها وبين الدين والاجتماع .

وقد أنهى الجزء الأول بعدد من الملاحق منها :

الملحق الأول الذي خصصه لدراسة مقارنة بين كتاب الاصطخري وابن حوقل وهي مقابلة ممتعة وضع فيها النصوص المتشابهة بجانب بعضها على نهرين متقابلين بحيث يتمكن القارىء من إيجاد أوجه الشبه والاختلاف بين النصين ثم وضع ملحقا ثانياً يختص بالتقاويم درس فيه كتاب « تقويم قرطبة » الذي ترجمه إلى الفرنسية المستشرق « ميللا » .

أما الملحق الثالث فقد خصصه لدراسة الأدب الجغرافي الفارسي .

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد قصد فيه إلى دراسة كيفية كتابة الجغرافيين العرب عن العالم .

بدأه بفصل تحت عنوان : الأرض الموحدة خصصه لدراسة تصور الجغرافيين العرب للأرض ككل لا يتجزأ .

ثم خصص الفصل الثاني لدراسة الأرض كما يتصورها العرب مقسمة .

أما الفصل الثالث فقد خصصه لدراسة الجغرافيين العرب للشرق الأقصى والخرائط التي رسموها لآسيا ودراساتهم للصين والهند وما فيها من حيوان ونبات وإنسان .

أما الفصل الرابع من الجزء الثاني فقد خصصه لدراسة نظرة الجغرافيين العرب لأفريقيا السوداء .

والفصل الخامس لدراسة نظرتهم إلى مناطق آسيا الصغرى وعلى الأخص دراسة العناصر التركية المختلفة وعاداتها وتقاليدها .

أما الفصل السادس فقد خصصه لدراسة نظرة الجغرافيين العرب إلى أوروبا الشرقية .

والفصل السابع خصصه لدراسة نظرة الجغرافيين العرب إلى أوروبا الغربية .

والفصل الثامن دراسة عن نظرة الجغرافيين العرب للإمبراطورية البيزنطية .

والفصل التاسع دراسة عن نظرتهم إلى البلدان الأسطورية .

والفصل العاشر لدراسة الجاليات الإسلامية في العالم .

ثم أنتهى كتابه بفصل بعنوان العالم الإسلامي على الأرض وعلى الجملة

فالكتاب يعتبر موسوعة شاملة لدراسة علم الجغرافيا عند المسلمين ولا يشابهه فيما نعلم أي كتاب آخر صدر عن نفس الموضوع .

وربما كان من الخير لو تضافرت جهود جهة علمية على ترجمته وإخراجه باللغة العربية لتعم فائدته .

* * *